العرب
الأربعاء 2020/11/25
السنة 43 العدد 11892

التخبط في مستنقع الجثث الهامدة

علي الصراف
كاتب عراقي

شيء جارح أن يُظهر الرئيس الفلسطيني عجزا عن إدراك الأساسيات، وأن يكون انفعاليا، وأن يفشل في السير على صراط مستقيم حيال شعبه، وألا يجد من يضبط له قراره فيسنده إلى دراسة عميقة، وألا ينظر في العواقب، وألا يحلل النتائج قبل وقوعها. شيء جارح أن يتخبط.

من الهجوم الظالم على الإمارات، إلى التعامل الانفعالي مع إسرائيل، إلى الانقلاب السريع على هذا وذاك، إلى عودة التنسيق الأمني على نحو مخز، إلى كل المظاهر التي تشير إلى شلل السلطة، وعجزها أن تكون سلطة مؤسسات، وتحولها إلى سلطة قرار فردي، فإن التخبط ليس مجرد علامة من علامات النزق، ولا هو مجرد علامة من علامات الشيخوخة، ولكنه فوق كل شيء علامة من علامات الموت.

الفلسطينيون بلا رئيس، من الناحية الفعلية. القرارات العشوائية التي يتخذها الرئيس محمود عباس، ليست ضارة فحسب، ولكنها مدمرة أيضا. ولقد أوقع الرئيس عباس قضية شعبه في مطب، كلما طال البقاء فيه، كلما أصبح الخروج منه أصعب. وها هو الخروج اليوم يقترب من حدود المستحيل.

الانقسام الفلسطيني تحول إلى جثة فكل المساعي التي بذلت لرأب الصدع كانت تدور حول التفاصيل السلطوية و«مكاسبها» ولم يملك أي من الطرفين إستراتيجية ناضجة لإخراج قضية شعبهما من المستنقع متعدد الأوجه

اتفاقات أوسلو التي تعطلت، كان يمكن للفلسطينيين، بما توفر لهم من عزائم المقاومة المدنية ضد الاحتلال، أن يعيدوا إحياءها أو فرضها، أو الخروج منها لتبقى المقاومة. ولكن سلطة الرئيس عباس قتلت روح المقاومة دفاعا عن سلطة – جثة، وعن اتفاق سلام تحول هو نفسه إلى جثة.

هذه كانت هي الخطيئة الأكبر، لكي لا نقول الجريمة الأكبر التي اقترفتها سلطة الرئيس عباس. وهي جريمة يتحمل كل الذين يحيطون به جزءا كبيرا من أوزارها، ممن لم يجرؤوا على تقويم خيارات رئيسهم.

لقد غرقوا في وهم ما كانوا يعتبرونه "إنجازا"، برغم أن "إنجاز السلطة" ظل فارغا، من معناه، ومنخورا من كل النواحي الإجرائية، وهزيلا من الناحية التنفيذية.

"إنجاز السلطة"، كان بديلهم عن "سلطة الإنجاز". وهذا ليس مجرد تلاعب لغوي. إنه الحقيقة المُرة التي جعلت الغارقين في عسل السلطة، لا يرون المرارات التي يعيشها شعبهم من جراء الحلول الناقصة والخيارات التي لا تؤدي إلى تحقيق الهدف.

سلطة الإنجاز كانت هي المطلوب لجعل عملية السلام تمضي قدما. وعندما تفشل، فقد كان أول شيء يتعين أن تفعله، هو أن تنسحب، لتترك للناس الخيار. ولكن سلطة الرئيس عباس آثرت أن تقف في مكانها، معتبرة أنه هو بحد ذاته مكسب، وأنها يجب أن تحافظ عليه. وكان ذلك خيارا، يعني في الواقع، قبولا مسبقا للعجز والفشل.

إسرائيل ليست غبية. لقد كانت تقرأ ما يحصل في سلطة الفشل. وكانت هي التي تحقق إنجازها الخاص، على مرآى الجثة الهامدة (السلطة الفلسطينية). ورغم أن تلك الجثة ظلت تُصدر أصواتا، من حين إلى آخر، ببيانات التنديد والغضب والتعكز على مقررات الشرعية الدولية، إلا أن إسرائيل كانت ترى أنها سلطة مكبلة مرتين. الأولى، باتفاقات ميتة. والثانية، بالفشل الذي اختارته لنفسها، طوعا لا كرها.

وبعد كل ما كشفه الرئيس عباس ومحيطه من تخبط، فإن الوقت قد حان لمواجهة الأسئلة الأخيرة.

إنها سلطة عجز وشلل وفشل.

ولا تملك خيارات أكثر مما يعرف الفلسطينيون نتائجه، ويدفعون ثمنه كل يوم.

ولا يوجد لديهم رئيس. وهو كلما قال أو فعل شيئا، جرح نفسه به، وزاد آلام شعبه، وضاعف الخسارة.

الانقسام الفلسطيني، تحول إلى جثة أخرى. فكل المساعي التي بذلت لرأب الصدع، كانت تدور حول التفاصيل السلطوية و"مكاسبها". ولم يملك أي من الطرفين إستراتيجية ناضجة لإخراج قضية شعبهما من المستنقع متعدد الأوجه لفشلهما الإداري والسياسي. حتى أصبح بقاء الانقسام تعلة مفيدة للطرفين، لكي يعلقا على شماعته فشلهما الخاص. وهما إذ يعرفان فوائد الانقسام وميزاته الانتهازية ومبيعاته الشعاراتية الفارغة وتواطؤاته الخارجية، فإنهما لا يعرفان في الواقع ماذا يفعلان برأبه. لا يعرفان ما معنى أن تكون للشعب الفلسطيني سلطة واحدة، ولا قضية واحدة أصلا.

إسرائيل دولة تبني. أليس ذلك واضحا؟ ولكنها لا تبني بمحض قدرتها على فرض الوقائع بالقسر أو القوة، فحسب. وإنما بعجز الطرف الآخر عن أن يكون قوة بناء لنفسه.

أول ما سوف يقال في الرد على هذه الحجة، هو أن إسرائيل لم تكن لتسمح بأي شيء. وهذا كذب من ناحيتين اثنتين على الأقل.

الأولى، هي أن بناء سلطة مؤسسات، تعرف وتضع أسسا لصناعة القرار، شأن داخلي فلسطيني. وهذه السلطة، لكي تكون كيانا محترما، فإنها ما كانت لتتخذ قرارا، أو تتبنى توجها من دون دراسة متأنية، يقوم بها خبراء وباحثون، لا "أبوات" خرجوا من بطون أمهاتهم "عباقرة".

والثانية، هي أن سلطة وجدت نفسها مكبلة وعاجزة، فلماذا اختارت أن تبقى كذلك أصلا؟ ما المنفعة التي كانت تنتظرها هذه السلطة، غير منافع الفساد الشخصي؟ ولماذا اختارت أن تقتل روح المقاومة في شعبها أصلا؟ وإذ يعرف المسؤولون الفلسطينيون حدود عجزهم، فلماذا ظلوا يكذبون على شعبهم، ويفرشون لهم بساط الأمل الفارغ؟ ولماذا اختاروا أن يرددوا شعاراتهم الغاضبة، وهم يقتاتون على خنوعهم المخزي مع سلطة الاحتلال؟

المتاجرة بالقضية، كانت جثة أخرى. ولقد افتضحت عندما ظل المسؤولون الفلسطينيون يبيعون ما لا يفعلون ويطلبون من الغير ما لا يطلبونه من أنفسهم.

وهل كان من المناسب أصلا، بالنسبة لشعب يعرف ما يريد، أن يضعه قادته في جيب هذه المصلحة أو تلك أو في خضم هذا التنازع أو ذاك؟

ولئن كان "الإجماع العربي" مقدسا، فلماذا أهانوه بوضع البيضة تارة في هذه السلة، وتارة في تلك؟

وهل كان الحمق، في العلاقة مع كل الدول العربية، ضروريا؟ ألم يكن التمسك بالهدف من الإجماع، التمسك بمعناه، التمسك بغاياته، هو العروة الوثقى؟

لقد انتهى المسؤولون الفلسطينيون من تخبط إلى تخبط أسوأ منه، ليس لأنهم محاصرون. هذه كذبة أخرى. بل لأنهم كانوا عاجزين عن رؤية بقية الطريق الذي اختاروا المضي فيه. فوقفوا في الوسط، لا هم قادرون على التراجع، ولا هم قادرون على المضي قدما في ما لا أمل فيه.

وقد لا تعرف، اليوم، كم بقي مما يمكن إنقاذه، أو كيف، ولكنك تعرف أن سلطة التخبط ليست هي الحل، ولن يسعها أن تقدم أكثر مما قدمت.

ضع الاعتبارات الشخصية جانبا. اكتب ما شئت من القصائد في مديح الإرث الشخصي المجيد للرئيس عباس. ولكن ذلك لا يغني عن الواقع شيئا. ولا هو يطفئ جمر المرارة والخسران أصلا. والوقت ضيق إلى أقصى حد.

الفلسطينيون ليسوا بحاجة إلى رئيس جديد فحسب، بل إلى إدارة جديدة كليا. إنهم بحاجة إلى أن يتبينوا طريقا للخروج من مستنقع الجثث الهامدة.

واقع إيراني لا يستطيع بلينكن التنكر له

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

بدأت ملامح إدارة جو بايدن تتشكّل وذلك قبل شهرين من دخوله البيت الأبيض. لا يمكن اعتبار تعيين أنطوني بلينكن وزيرا للخارجية حدثا عابرا. وقع اختيار بايدن على شخص عمل معه طويلا يمتلك خبرة في كل ما له علاقة من قريب أو بعيد بالسياسة الخارجية وتفاصيلها الدقيقة. اكتسب هذه الخبرة من خلال العمل كمستشار للأمن القومي لبايدن نفسه عندما كان نائبا للرئيس باراك أوباما بين 2008 و2016 أو كنائب لوزير الخارجية جون كيري لاحقا، وقبل ذلك كالرجل الثاني في مجلس الأمن القومي.

من خلال المواقع التي شغلها، بما في ذلك وجوده إلى جانب جو بايدن في الحملة الرئاسية، يستطيع بلينكن أن يكون على اتصال مباشر بالرئيس الأميركي الجديد. هذه صفة لم يتمتع بها معظم وزراء الخارجية الأميركيين الذين شغلوا هذا الموقع. من هذا المنطلق، سيكون وزير الخارجية الأميركي الجديد قادرا على إعادة الاعتبار لعدد كبير من موظفي الخارجية، من الدبلوماسيين المحترفين الذين شعروا بالتهميش في عهد دونالد ترامب. سيعيد تركيب وزارة الخارجية على أسس مختلفة. سيعيد قبل كلّ شيء الاعتبار إلى الدبلوماسيين المحترفين الذين يؤمن بهم بايدن. أكثر من ذلك، عندما سيفاوض بلينكن في مجال العودة إلى الاتفاق النووي مع إيران، فهو يفعل ذلك من زاوية من يعرف كيف التعاطي مع إيران من جهة وأهمّية الشراكة الأوروبية في الحدّ من قدرة إيران على التوسّع من جهة أخرى.

ينتمي بلينكن إلى مدرسة مختلفة عن تلك التي ينتمي إليها دونالد ترامب والفريق الذي دفعه إلى تمزيق الاتفاق في شأن الملفّ النووي الإيراني في العام 2018. كان هذا الفريق يعرف تماما ما على المحكّ مع إيران. جاء تمزيق الاتفاق تتويجا لغياب أي ثقة أميركية بإيران وذلك منذ قيام "الجمهورية الإسلامية" في العام 1979 واحتجاز الدبلوماسيين الأميركيين في طهران 444 يوما. هل يعي بلينكن أنّ طريقة تعاطي ترامب مع إيران كانت ناجعة خلافا لكل الطرق الأخرى التي لجأ إليها الرؤساء الأميركيون السابقون، من جيمي كارتر... إلى باراك أوباما؟ ثمّة حاجة إلى تبريرات قويّة لتفادي الاعتراف بهذا الواقع. لجأ وزير الخارجية الأميركي المعيّن إلى هذه التبريرات التي قد تثبت الأحداث أنّها غير صحيحة ولا أساس لها.

لدى بلينكن وجهة نظر مختلفة في شأن الملفّ النووي الإيراني. تقوم هذه النظرة، كما عبّر عنها أخيرا في مقابلة مع الصحافية المشهورة مارغريت بريnان، على أن مقاربة إدارة ترامب للملف الإيراني لم تؤد إلى النتائج المرجوة. يركّز في هذا المجال على ضرورة التوصل إلى صفقة مع إيران بمشاركة الحلفاء (الأوروبيين والدوليين) تؤدي إلى الحد من التصرفات الإيرانية المشكو منها.

هناك وعي لدى بلينكن لأهمّية وجود تحالف واسع في مواجهة إيران. مثله مثل جو بايدن، يتحدث عن ضرورة وجود مثل هذا التحالف في أي مواجهة مع الصين. مثل هذا الرأي وجيه إلى حد كبير. لكن السؤال الذي سيطرح نفسه عاجلا أم آجلا ما العمل، أميركيا، بعد توقيع إيران في حزيران – يونيو الماضي "اتفاقا استراتيجيا شاملا" مع الصين لمدّة 25 عاما. في الواقع، إنّ مثل هذا الاتفاق لا أفق له. يعود ذلك إلى أن إيران لا تريد أن تعرف تماما ما هي الصين على الرغم من العلاقات القديمة بين طهران وبكين. لا تريد "الجمهورية الإسلامية" الاعتراف بأنّ مثل هذا الاتفاق يضعها تحت نوع من الوصاية. ولكن ما العمل في عالم يعتبر فيه الإيرانيون أن في استطاعتهم التذاكي على أي كان في العالم، بما في ذلك الصين.

من الواضح أنّ أنطوني بلينكن ليس شخصا سهلا. اتخذ كلّ احتياطاته في تعاطيه مع الملفّ النووي الإيراني ومسألة احتمال العودة إليه. كان في الفريق الذي تفاوض مع إيران سرّا قبل التوصل إلى الاتفاق صيف العام 2015، وهو اتفاق بين إيران من جهة ومجموعة الخمسة زائدا واحدا من جهة أخرى. للتذكير فقط، تضم مجموعة الخمسة زائدا واحدا البلدان الخمسة ذات العضوية في مجلس الأمن وألمانيا.

هناك وعي لدى بلينكن لأهمية وجود تحالف واسع في مواجهة إيران وهو مثله مثل جو بايدن يتحدث عن ضرورة وجود مثل هذا التحالف في أي مواجهة مع الصين أيضا

لا يمكن رفض كلّ ما قامت به إدارة دونالد ترامب دفعة واحدة. قد تقتنع إدارة بايدن بذلك ولكن بعد تثبيت رجليها في البيت الأبيض. لا يمكن افتراض أنّ ترامب لم يعرف كيف التعاطي مع إيران. على العكس من ذلك تماما كان هناك حوله فريق عمل يعرف تماما كيف التعاطي مع "الجمهورية الإسلامية" ومشروعها التوسّعي. الأكيد أن ترامب نفسه لم يكن يعرف الكثير عن إيران. لكن ما هو أكيد أيضا أن الذين كتبوا له خطاباته، وصولا إلى تصفية قاسم سليماني قائد "فيلق القدس" في "الحرس الثوري" يعرفون إيران جيّدا.

يبقى أنطوني بلينكن وزيرا واعدا للخارجية الأميركية. يكفي أنّه اعترض على قرار باراك أوباما الرافض للاقتصاص من بشّار الأسد بعد ضربه الشعب السوري بالسلاح الكيميائي في آب – أغسطس من العام 2013. يقول وزير الخارجية الأميركي المعيّن الآن إنّ المأساة التي حلت بالشعب السوري ستلاحقه إلى آخر أيّامه. ربّما كان ذلك عائدا إلى أنه من أمّ وأب يهوديين وأنّه عاش فترة مع والدته في باريس بعد طلاقها من والده وزواجها من شخص كان من بين الناجين من المحرقة النازية. من هذا المنطلق، يمكن أيضا فهم ليبيرالية أنطوني بلينكن، فلسطينيا، وتأييده خيار الدولتين خلافا لما يطالب به اليمين الإسرائيلي. تدفعه هذه الليبرالية إلى تأكيد "استحالة" أي لقاء بين إدارة بايدن والنظام السوري الحالي الذي على رأسه بشّار الأسد.

دخلت الولايات المتحدة في عهد جو بايدن مرحلة جديدة مختلفة كلّيا عن مرحلة عهد دونالد ترامب. من خلال جو بايدن ووزير الخارجية المعيّن، ستكون هناك إدارة أكثر إنسانية. لكنّه يفترض بمثل هذه الإدارة الاعتراف بأنّ تركة دونالد ترامب ليست مجموعة من السلبيات فقط. هناك إيجابيات لا يمكن تجاهلها. من بين هذه الإيجابيات، أن العودة الأميركية إلى الاتفاق النووي مع إيران ستكون من موقع قوة. ليس ترامب وحده الذي عرف كيف يكشف أن إيران ليست سوى نمر ورق. من فعل ذلك كان مجموعة محيطة به تعرف تماما ما هي إيران ومدى تأثير العقوبات عليها. مثل هذا الواقع لا يمكن إنكاره والتنكر له، وهو بين التحديات التي ستواجه أنطوني بلينكن وآخرين في إدارة جو بايدن.